كلية : الاداب

القسم او الفرع :تاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : ا. د. عبد صالح محمد

اسم المادة باللغة العربية :العباسي الاول

اسم المادة باللغة الإنكليزية : The first Abbasid era

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: قيام الامارة الصفارية والطولونية:

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية: The establishment of the Saffarid and Tulunid emiratesa

...

تناولت في هذه المحاضرة : قيام الامارة الصفارية والطولونية:

الامارة الصفارية:

الدولة الصفارية سلالة أصلها من حضارة الساس وهي حضارة قديمة حكمت في موطنهم في بلاد ساستان قرب مدينة بست شمال شرق سيستان وفارس، وأفغانستان وأجزاء من ما وراء النهر ،ويعود اصل الصفاريين إلى الفرس ،وجعلوا اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية لدولتهم، وكان يعقوب مؤسس الدولة في بدايته صانعًا الصُفر أو النحاس.

تنتسب الأسرة إلى يعقوب بن الليث الصفار (نسبة إلى حرفته: صناعة الصُفر أو النحاس). تقول الروايات أنه ينحدر من جبال الساس شرق فارس، وكان لديه ثلاثة إخوة (عمرو، طاهر، علي) فانضموا إلى خالهم (كثير بن دقاق) وكوّنوا عصابة لقطع الطريق ولكن لم يكونوا قطاع طريق بالمعنى المعروف للسرقة ولكن للاعتراض على أحوال مجتمعهم. استطاع يعقوب بن الليث أن ينضم إلى (طوائف المطوعة) بقيادة (صالح بن النضير الكناني) وخاضوا حروباً ضارية مع خوراج سجستان واضطر واليها (إبراهيم بن الحسين) للهروب وليصبح بذلك (درهم بن الحسين) والي سجستان وولّى يعقوب بن الليث الصفاري على ولاية (بست) فذاع صيته والتفَّ حوله الناس حتى أن أهل خراسان أرسلوا يستنجدون به في عهد الدولة الطاهرية فرفع عنهم الضرر ونجح في كسب الأهالي وجاءت الفرصة أمام يعقوب بن الليث حينما تنازل (درهم بن الحسين) عن ولايته سجستان.

أجمعت المصادر على أنه كان رجلاً عاقلاً حازماً وأظهر حرصه على تدعيم ملكه حيث اهتم بتدبير أمور مملكته وتحصينها وعمارة أرضه فكثرت أمواله وعمرت خزائنه بعد ذلك أن يُنشئ ثم يقود وحدات عسكرية كبيرة ثم أعلن نفسه حاكما على سجستان (بلوشستان). سنة ٨٦٧ م ضم إليه المناطق التي حكمها الطاهريون (منذ ٨٦٨ م: هراة، فارس، شيراز، بلخ ثم طخرستان). انتهى الأمر بأن قام بإجلائهم عن خراسان (سنة ٨٧٣ م) و أفغانستان. عينه الخليفة سنة ٨٧١ م واليا على المناطق الشرقية. أعد سنة ٨٧٦ م حملة على بغداد.

استطاع أخوه عمرو (٨٧٨-٩٠٠ م) أن يحتفظ بالمناطق التي استولى عليها يعقوب ثم كان أن اعترف به الخليفة هو أيضا واليا على ما وراء النهر. إلأ أنه هزم على يد السامانيين فيما بعد (سنة ٩٠٠م) ثم أسر. أراد حفيده الطاهر (٩٠٠-٩٠٣م) أن يستعيد أملاك أجداده، فجهز حملة من قاعدته في سستان، ثم فشل في النهاية. حكم

خليفته كوالٍ على سستان (ومقره في نمروز) ثم وضع نفسه تحت سلطة السلاجقة منذ ١٠٦٨م حتى سنة ١٣٨٣م، بعد قيام تيمورلنك بالقضاء على هذا الفرع نهائيا.

١ يعقوب بن الليث الصفّار

٢ عمرو بن الليث .

٣ طاهر بن محمد بن عمرو

٤ الليث بن علي بن الليث .

٥ محمد بن علي .

٦ المعدل بن علي .

٧ عمرو بن يعقوب.

يعقوب بن الليث والخلافة العباسية

وبعد سنتين وضع يد يعقوب بن الليث الصفار على كرمان فمنح الخليفة المعتز (٥٢ ـ ٢٥٦هـ/٨٦٦ ـ ٨٦٩م) هذه الولاية لشخصين في آن واحد هما يعقوب بن الليث، وعلي بن الحسين والي فارس، يريد بذلك إغراء كل منهما بالآخر رغبة بالتخلص من أحدهما، وكان النصر حليف يعقوب الصفار الذي لم يكتف بالسيطرة على كرمان بل انتزع من خصمه فارس أيضاً.

وفي سنة ٢٥٨ هـ/٨٧١م، نال يعقوب بن الليث الصفار رضاء الخليفة المعتمد (٢٥٧-٢٧٩هـ/٨٧٠-٨٩٢م)، فضم إليه الخليفة ولاية بلخ وطخارستان، وأخيراً صمم يعقوب بن الليث على مهاجمة محمد بن طاهر والي خراسان، فدخل نيسابور دون مقاومة تذكر وأسر محمد ابن طاهر وأنهى حكم الطاهريين سنة ٢٥٩ هـ/٨٧٣م.

لم تلتزم حكومة بغداد الصمت حيال تصرفات يعقوب بن الليث الصفار، خاصة وأن نفوذ الطاهريين ببغداد كان من شأنه أن يحمل الخليفة على أخذ جانب محمد، فجمع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب الشرطة سنة ٢٦٠ هـ، الحجاج القادمين من الأقطار الشرقية (خراسان والري وطبرستان وجرجان) وقرأ عليهم كتاب الخليفة يأمرهم فيه بالبراءة من يعقوب الصفار لإنكار الخليفة دخوله خراسان وأسره محمد بن طاهر، فكان رد فعل يعقوب بن الليث على هذا سيره من خراسان إلى العراق، ولكن قوات الخليفة هزمت يعقوب بن الليث بالقرب من دير العاقول على بعد ٥٠ ميلاً من بغداد في رجب سنة ٢٦٢ هـ، نيسان ٨٧٦م، وعلى الرغم من هزيمته فقد بقي محتفظاً بفارس وكرمان وخراسان وسجستان حتى موته.

كان اهتمام يعقوب خلال فترة حكمه منصباً على أمرين، الأول خلق جيش قوي يحمل له الولاء التام، والثاني الحصول على الأموال اللازمة لمتابعة حروبه مما دفعه مراراً إلى مصادرة أملاك الأغنياء، وكان جنده باستثناء القادة يتسلمون الخيل والعلف من خزائنه، ولكن يعقوب ظل في حياته الخاصة جندياً بسيطاً يلبس القطن، ويجلس على الأرض فإذا أراد النوم اضطجع على ترسه ونزع راية فجعلها مخدته، وقد أجاب رسول الخليفة الذي سأله عن سبب تقشفه "إن رئيس القوم يأتم به أصحابه في ما يظهر من أفعاله وسيرته، فلو استَعْملتُ ما ذكرت من الأثاث لأثقلنا البهائم ولأتم بي في فعلي من في عسكري، ونحن نقطع في كل يوم المفاوز والأودية والقيعان، ولا يصلح لنا إلا التخفيف".

عمرو بن الليث

توفي يعقوب بن الليث سنة ٢٦٥هـ/٨٧٧م، في جند يسابور، فبايع الجند أخاه عمرو بن الليث الذي لجأ إلى أسلوب آخر في نضاله مع خصومه، فاتبع في بادئ الأمر سياسة اللين والمهادنة وتقديم فروض الطاعة للخليفة الذي عيَّنه والياً على خراسان وفارس وأصفهان وسجستان وكرمان والسند، ولكن لم يتم الاعتراف به حاكماً شرعياً لخراسان إلا عندما تولى المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م.

تميز عمرو بن الليث بكفاءَته في إدارة شؤون دولته، وكان الجيش موضع عنايته، إذ كان الجند يتسلمون أرزاقهم كل ثلاثة أشهر وسط عرض مهيب، وكان المسؤول عن دفع أرزاق الجند موظف خاص هو العارض الذي يأخذ مجلسه في المكان المعين للعرض، وعندما يُسمع صوت طبلين هائلين يتجمع الجيش بأكمله في ذلك الموضع، وتوضع أكياس الدراهم أمام العارض في حين يمسك معاونه قائمة بأسماء الجند يناديهم منها، ومما يلفت النظر في الرواية أن عمرو بن الليث كان يُعامَل فرداً من الجند، فإن المنادي كان ينادي أولاً اسم عمرو بن الليث، فيتفقد العارض دابته وآلته بدقه ثم يعرب عن رضاه، ويدفع له ٣٠٠ درهم، ثم يرجع عمرو فيأخذ مجلسه على صعيد من الأرض ليراقب فرسانه ورجاله يتقدمون بدورهم أمام العارض ليفحص دوابهم وآلتهم ويسلمهم أرزاقهم.

وكان لعمرو بن الليث ثلاث خزائن، الأولى تضم الأموال المجموعة من خراج الأرض وغيرها من الضرائب، وكان يستعمل هذا المال في شؤون جيشه، وكانت الخزانة الثانية تضم الأموال المجموعة من الأملاك الخاصة بالأمير

وتصرف على متطلبات بلاطه، أما الخزانة الثالثة فكانت تضم ما صودر من أملاك أتباعه الذين انضموا إلى صفوف أعدائه، ومن هذه الخزانة كان يوزع الصلات على خدمه المخلصين وعلى كبار رجال دولته والسفراء.

تذكر بعض الروايات أنه كان لعمرو بن الليث جواسيس في كل مكان، وأنه كان على علم بكل ما يجري في أراضيه. كما يذكر الموسوي صاحب كتاب "تاريخ خيرات" أن عمراً كان يشتري الغلمان الأحداث ويربيهم في خدمته ثم يهديهم إلى كبار رجال دولته وإلى القادة، وأن هؤلاء الغلمان كانوا ينهون إليه كل أعمال أسيادهم، وكان عمرو بن الليث يمنع أصحابه وقواده أن يضرب أحد منهم غلاماً إلا بأمره.

لم يكتف عمرو بسلطانه على خراسان وفارس وأصفهان وسجستان وكرمان والسند، وإنما أخذ يمد بصره إلى ما وراء النهر، حيث كان سلطان السامانيين قد توطد فيها آنذاك. وفي سنة ٢٨٧هـ /٩٠٠م، حدثت معركة قرب بلخ بين قوات إسماعيل بن أحمد الساماني وقوات عمرو بن الليث انتهت بهزيمة عمرو، ووقوعه في الأسر، وإرساله إلى بغداد حيث قتل بعد موت المعتضد بقليل في عام ٢٨٩هـ/٩٠٢م.

ضعف الدولة الصفارية

بدأت الإمبراطورية الواسعة التي بناها الأخوان بالانكماش، فقد أسندت ولاية خراسان إلى السامانيين فيما وراء النهر، ولكن خلفاء عمرو وقائدهم التركي سبكَري احتفظوا بفارس وكرمان وسجستان لعقد من الزمان. وفي سنة ٢٩٨هـ/٩١١م، أسند الخليفة المقتدر حكم سجستان إلى السامانيين، فأرسل السامانيون حملة إلى سجستان أنهت حكم الصفاريين فيها.

بقيت الأوضاع مضطربة في سجستان، فتمكن العيارون سنة ٣١١هـ/٩٢٣م، من إيصال حفيد من أحفاد الصفاريين إلى حكم سجستان، هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن خلف الذي حكم ما يقارب الأربعين عاماً من ٣١١-٣٥٢هـ/٩٢٥-٩٦٣م، وقد مد أبو جعفر سلطة الصفاريين إلى بست والرُخَج، وجعل من سجستان قوة في ميدان سياسة العالم الإسلامي الشرقي.

سقوط الدولة الصفارية

خلف أبو جعفر ابنه أحمد بن خلف ٣٥٢-٣٩٣هـ/٩٦٣-١٠٠٣م، وقد أنهى محمود بن سبكتكين الغزنوي حكم الصفاريين في سجستان حينما استولى عليها، ومات أحمد بن خلف في الأسر في مدينة كاردبز.

من مآثر الدولة الصفاريين

كان أحمد بن خلف أشهر حكام الدولة الصفارية، فقد جمع حوله مجموعة من العلماء الذين كانوا يتمتعون برعايته، منهم الفيلسوف والعالم في المنطق أبو سليمان محمد المنطيقي (ت ٣٧٥هـ)، وكان بلاطه مقصد الأدباء والكتاب منهم بديع الزمان الهمذاني، ولكن العمل الذي خلده هو تفويضه لجنة من العلماء بوضع تفسير للقرآن بلغت أجزاؤه ١٠٠جزء، ولكن لم يتح لهذا المؤلف الضخم البقاء لأن الغزو المغولي، سبب الدمار والخراب لمدن خراسان ومكتباتها.

كان الصفاريون يعتنقون المذهب السني، ويدعون للخليفة على المنابر لاكتساب رضاء الجماهير، ولكنهم حاولوا تقليص سلطة الخليفة ومشاركته في مظاهر سيادته، فأمر يعقوب بذكر اسمه في الخطبة مع اسم الخليفة، كما نقش أخوه عمرو اسمه على النقود، ولم يرسل الصفاريون فائض خراجهم للخلفاء العباسيين، بل تصرفوا بأموال المناطق التابعة لهم، ولكنهم على الرغم من كل شيء طبقوا مبادئ العدل والمساواة بين أتباعهم فأيدتهم الطبقات الفقيرة.

الدوله الطولونيه :

الدولة الطولونية.. النشأة والمؤسس

شهدت الفترة الأولى من العصر العباسي الثاني -أو ما يُسمَّى بعصر نفوذ الأتراك- ظهور الدول المستقلة، بعد أن ضعفت قبضة الخلافة، وتولى أمرها مَن لم يكن في قدرة الخلفاء العباسيين الأوائل كفاءةً وحزمًا؛ فانفلت الأمر من أيديهم إلى قوادهم الأتراك الذين كانت الدولة تستعين بهم في تسيير أمورها وقيادة جيوشها، وظهر منهم شخصيات كبيرة استأثرت بالأمر دون الخليفة الشرعي، وتدخلت في تعيين الخلفاء وعزلهم. ولذلك لم يكن غريبًا أن يستأثر بعض الولاة بما تحت أيديهم، ويُنشِئوا دولاً مستقلة -وإن كانت ترتبط بالخلافة- ويحكموا من خلالها، لكن النفوذ الفعلي في الولاية كان لحكامها لا للخليفة العباسي الموجود في بغداد، ومن أبرز الدول التي ظهرت في هذا العصر الدولة الطولونية التي قامت في مصر والشام والحجاز.

قامت الدولة الطولونية وهي إحدى الدول المستقلة عن الدولة العباسية، وامتدت فترة حكمها في الفترة من (٢٥٤- ٢٩٢هـ/ ٨٦٨- ٩٠٥م). وتمثِّل الدولة الطولونية أول تجربة حكم محلي تحكم فيه أسرة أو دولة حكمًا مستقلاً عن حكومة الخلافة المركزية، وقد كان مؤسِّس هذه الأسرة أحمد بن طولون، جنديًّا تركيًّا، وكان والده أحد الموالي الذين أهداهم ملك بُخارَى للخليفة العباسي المأمون، وقد جاء إلى مصر نائبًا للحاكم العباسي فيها، لكنه استأثر بالحكم، ثم بسط سلطانه على الشام، وكان العباسيون مشغولين بمقاومة ثورة الزنج. وحكم بعد أحمد بن

طولون ابنه خمارويه الذي عقد معه الخليفة العباسي المعتضد اتفاقًا يقضي بمنحه هو وورثته الحكم في مصر والشام لمدة ثلاثين عامًا على أن يؤدِّي للخليفة مبلغًا سنويًّا مقداره ثلاثمائة ألف دينار.

وبعد خمارويه بدأت الدولة الطولونية بالأفول، وأعاد الخليفة العباسي بسط نفوذ الدولة المركزية؛ إذ كانت الهيمنة في الدولة الطولونية للأتراك واليونان والنوبيين. وقد حكمها بعد خمارويه كل من جيش وهارون وشيبان حتى احتل جيش العباسيين مصر والشام بقيادة محمد بن سليمان، وفي سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م دخلت الجيوش العباسية القطائع تحت قيادة محمد بن سليمان، الذي قبض على الطولونيين وحبسهم، وأخذ أموالهم وأرسلهم إلى الخليفة، وأزال بقايا الدولة الطولونية التي حكمت مصر والشام مدة ثمانية وثلاثين عامًا.

شجرة الحكام

١- أحمد بن طولون (٢٥٤- ٢٧٠هـ/ ٨٦٨- ٨٨٤م).

٢- خمارويه بن أحمد (٢٧٠- ٢٨٢هـ/ ٨٨٤- ٨٩٥م).

٣- أبو العساكر جيش بن خمارويه (٢٨٢- ٢٨٣هـ/ ٨٩٥- ٨٩٦م).

٤- هارون بن خمارويه (٢٨٣- ٢٩٢هـ/ ٨٩٦- ٩٠٤م).

٥- شيبان بن أحمد (٢٩٢هـ/ ٩٠٥م).

تأسيس الدولة الطولونية

لم يكن أحد يتوقع أن يكون ذلك المملوك التركي مؤسِّسًا لدولة تحكم ذاتيًّا بعيدًا عن الخلافة العباسية.

لقد حفر التاريخ اسم أحمد بن طولون كمؤسِّس للدولة الطولونية، وهو من المماليك الأتراك، ولد عام ٢١٤هـ/ ٨٢٩م، وقد نشأ نشأة دينية؛ فكان يعيب على الأتراك ما كانوا يرتكبونه من المنكرات، وقضى حياته السياسية والعسكرية الأولى في ثغر طرسوس، وتمتع منذ البداية باحترام الأتراك في حاضرة الخلافة، وبعد وفاة والده عام (٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) فوَّض إليه الخليفة المتوكل ما كان بيد أبيه، كما حظي بثقة الخليفة المستعين.

بعد وفاة والده تزوجت والدته بالأمير بايكباك التركي الذي عينه الخليفة المعتز واليًا على مصر في عام (٢٥٤هـ/ ٨٦٨م)؛ فأرسل أحمد ليتولى حكمها بالنيابة عنه، ولم يكن له كل الولاية وإنما كان على الصلاة، وله الحاضرة المصرية (الفسطاط).

ساعدت الظروف أحمد بن طولون في تثبيت أقدامه في مصر، فقد حدث أن قُتِل بايكباك في عام (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م)، فأُسنِدت ولاية مصر إلى يارجوخ الذي كانت تربطه بابن طولون عَلاقات طيبة ومصاهرة، فأقرَّه على ما بيده، وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها، باستثناء الخراج الذي ظلَّ بيد منافسه أحمد بن المدبر الذي اشتُهِر بسوء

السيرة؛ مما دفع ابن طولون إلى أن طلب من الخليفة المهتدي أن يُقِيل ابن المدبر من خراج مصر ويولِّيه إياه، فاستجاب الخليفة لطلبه، كما ولاّه إمرة الثغور الشامية على إثر اضطراب أوضاعها.

ولما تُوفِّي يارجوخ في عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م) أضحى ابن طولون حاكم مصر الشرعي من قبل الخلافة مباشرة، فتولَّى مقاليد الأمور كلها، ودانت له الإسكندرية وبرقة، وقدَّم له أمراء الكور الخضوع والطاعة.

الثورات في عهد أحمد بن طولون

أولاً: ثورات العلويين:

١- ثورة بغا الأصغر: كان أول هذه الثورات ثورة بغا الأصغر وهو أحمد بن محمد بن عبد الله طباطبا، الذي ترك العراق ونزل مع أتباعه في موضع بين الإسكندرية وبرقة يقال له: الكنائس، وذلك في جمادى الأولى سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م، ثم اتجه بمجموعته إلى الصعيد، فأرسل إليه أحمد بن طولون جيشًا بقيادة بهم بن الحسين، هزمهم وأتى برأسه إلى الفسطاط.

٢- ثورة ابن الصوفي العلوي:

واسمه إبراهيم بن محمد بن يحيى من سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد ثار سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م في مصر العليا، واستطاع الاستيلاء على إسنا في ذي الحجة سنة ٢٥٥هـ/ أكتوبر ٨٦٨م، فنهبها وقتل جمعًا من أهلها. ولما استفحل خطره، سيَّر إليه ابن طولون جيشًا بقيادة أزداد فتغلب عليه ابن الصوفي، ومثَّل بقائده أشنع تمثيل؛ فبادر ابن طولون بإرسال جيشًا آخر بقيادة بهم بن الحسين، فاستطاع التغلب على ابن الصوفي الذي فرَّ إلى الصحراء الغربية وظل بها ما يقرب من أربع سنوات، ثم عاد في سنة ٢٥٨هـ/ ٨٧١م إلى الأشمونين ليصطدم مع ثائر آخر في أسوان هو عبد الرحمن العمري ويُهزَم، ثم يغادر بعد خلاف بينه وبين أنصاره ويدخل بلاد البجة إلى أن يصل إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ومنه إلى مكة.

٣- ثورة العمري:

قلق ابن طولون من نشاط العمري، فأرسل إليه جيشًا إلا أن هذا الجيش هُزِم، ثم آثر ابن طولون السلامة معه، بعد أن كتب له العمري أنه في مائة ألف أو يزيدون. ومن محاسن أقدار ابن طولون أن العمري لم يبقَ طويلاً؛ إذ قتله غلامان من قبيلة مُضَر، وحُمِلَ رأسُه إلى ابن طولون.

ثانيًا: ثورة أهل مدينة برقة:

قام أهل مدينة برقة سنة ٢٦٢هـ بثورةٍ، وطردوا عامل ابن طولون عليها، فسيَّر إليهم ابن طولون جيشًا بقيادة لؤلؤ الذي اتَّبع معهم سياسة اللين في البداية غير أنهم لم يخضعوا له، فاضطر لؤلؤ إلى استخدام العنف معهم،

وحاصرهم، وشدَّد عليهم حتى اضطُرُّوا إلى طلب الأمان، وفتحوا أبواب مدينتهم له، فدخلها وقبض على زعماء الثورة، وعيَّن عليهم واحدًا من مواليه، ثم عاد إلى مصر.

ثالثًا: ثورة العباس بن أحمد بن طولون:

خرج أحمد بن طولون إلى بلاد الشام في شعبان ٢٦٤هـ، واستخلف ابنه العباس على مصر، وضم إليه أحمد بن محمد الواسطي مدبرًا ووزيرًا له، لكن بطانة السوء أشارت على العباس إعلان العصيان على أبيه، والقبض على الواسطي الذي أرسل لابن طولون يُعلِمُه بما يحدث، ثم اتجه إلى برقة، ولما عاد ابن طولون إلى مصر استطاع أن يقبض على ابنه، وأن يضعه في السجن حتى مات في عهد أخيه خمارويه بن أحمد بن طولون.

ابن طولون والخليفة المعتمد

وعلى الرغم من أن المعتمد على الله كان يتولى منصب الخلافة فإنه لم يكن له من الأمر شيء، وكانت مقاليد الأمور في يد أخيه الموفق ولي عهده، وبلغ من تضييق الموفق على أخيه المعتمد وإبعاده عن مباشرة أمور الدولة أن احتاج الخليفة يومًا إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها، فقال:

أليس من العجائب أن مثلي *** يرى ما قلَّ ممتنعًا عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعًا *** وما من ذاك شيء في يديه

إليه تُجمَع الأموالُ طُرًّا *** ويُمنع بعض ما يُجبى إليه

وكان الموفق قد استقلَّ الأموال التي أرسلها إليه أحمد بن طولون لمساعدته في مواجهة ثورة الزنج التي هددت الدولة العباسية خمسة عشر عامًا (٢٥٥- ٢٧٠هـ)؛ مما جعل العداء يشتد بينهما.

وحاول ابن طولون بعد أن امتد سلطانه، واتسع نفوذه أن يغري الخليفة المعتمد بالقدوم عليه في مصر، وأن يجعل من مصر مقرًّا لدولة الخلافة؛ فكتب إليه بهذا الشأن في سنة (٢٦٨هـ/ ٨٨٢م)، ووعده بالنصرة والحماية، لكن الخليفة لم يُجبه إلى عرضه إلا بعد ذلك بعام، فأرسل إليه يخبره بأنه خارج إليه، وكان ابن طولون في دمشق يستعد لقمع فتنة شبَّتْ في طرسوس، غير أن محاولة الخليفة اللحاق بأحمد بن طولون فشلت، وتمكَّن الموفق من ردِّ الخليفة إلى سامراء عاصمة الخلافة، وإثنائه عن محاولته.

وترتب على هذا أن قام الموفق بعزل ابن طولون عن مصر، لكن القرار لم يلقَ قَبولاً من ابن طولون الحاكم القوي وصاحب النفوذ والسلطان، ولم يكتفِ بعدم التنفيذ، بل عقد اجتماعًا في دمشق جمع فيه القضاة والفقهاء والأشراف من أنحاء ولايته، وأعلن خلع الموفق من ولاية العهد؛ لِتحكُّمه في الخليفة الشرعي واستبداده بالأمر دونه، وكتب بذلك إلى عماله في أنحاء مصر والشام، غير أن صوت العقل تدخّل بين الطرفين، وعُقد بينهما صلح، وأُقر ابن طولون على ما تحت يديه من البلاد.

مظاهر الحضارة في الدولة الطولونية

كان أحمد بن طولون رجل دولة من الطراز الأول؛ فعُنِيَ بشئون دولته، وما يتصل بها من مناحي الحياة، ولم تشغله طموحاته في التوسع وزيادة رقعة دولته عن جوانب الإصلاح والعناية بما يحقق الحياة الكريمة لرعيته؛ ولذا شملت إصلاحاته وإسهاماته شئون دولته المختلفة.

١- القطائع:

أسس أحمد بن طولون مدينة جديدة في سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م على جبل يشكر -الذي يعرف بقلعة الكبش- بين الفسطاط وتلال المقطم، وقد سميت المدينة الجديدة باسم القطائع؛ لأن كل طائفة من رجاله اتخذت لها قطيعة لسكانها، فيقال: قطيعة السودان، وقطيعة الروم، وقطيعة الفراشين، وبَنَى القوَّاد مواضع متفرقة، فعَمُرَت القطائع، وبُنِيت فيها المساجد والطواحين والحمامات، حتى صارت القطائع مدينة كبيرة.

وبنى ابن طولون في مدينة القطائع قصرًا ضخمًا، جعل أمامه ميدانًا فسيحًا ليستعرض فيه جيشه، ثم أقام حول القصر ثكنات لجنوده وحاشيته.

٢- مسجد أحمد بن طولون:

أراد أحمد بن طولون أن يشيد مسجدًا جامعًا بالقطائع لا تأتي عليه النيران أو تهدمه مياه الفيضان، فإن احترقت مصر بَقِي، وإن غرقت بقي، فحقَّق له المهندس رغبته، فبناه جميعه من الآجُرّ الأحمر، ورفعه على دعامات من الآجر أيضًا، ولم يُدخِل في بنائه أعمدة من الرخام سوى عمود القبلة، وانتهى بناؤه سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨-٨٧٩م، وقد استغرق بناؤه عامين. والجامع مربع الشكل، يتوسطه صحن مكشوف، تحيط من جوانبه الأربعة أربعة أروقة مسقوفة، إضافة إلى ثلاثة أورقة خارجية.

٣- البيمارستان:

أنشأ ابن طولون بيمارستانًا سنة (٢٥٩هـ/ ٨٧٢م) لمعالجة المرضى مجانًا دون تمييز بين الطبقات والأديان، وجعل العلاج فيه دون مقابل، وألحق به صيدلية لصرف الأدوية، فإذا دخل المريض المستشفى تنزع ثيابه وتقدَّم له ثيابٌ أخرى، ويودع ما معه من المال عند أمين المارستان، ويظل المريض تحت العلاج حتى يتم شفاؤه، وكانت دلالة شفاء المريض قدرته على أكل رغيف كامل، ودجاجة، وعندئذٍ يُسمَح له بمغادرة المستشفى، وكان ابن طولون يتفقد المستشفى، ويتابع علاج الأطباء، ويشرف على المرضى.

٤- إنشاء القناطر:

شيَّد أحمد بن طولون في الجنوب الشرقي من القطائع قناطر للمياه، وكان الماء يسير في عيونها إلى القطائع من بئر حفرة في أسفلها، وكان يرفع الماء من البئر إلى القناطر بواسطة ساقية، وقد بنيت هذه القناطر من نفس الآجُرّ

الذي بُني منه الجامع الطولوني. لهذا يعتقد أن المهندس الذي شيدها هو نفس المهندس الذي شيد الجامع، ولا تزال بقية من هذه القناطر باقية إلى اليوم في حي البساتين بالقاهرة.

٥- مسجد التنور:

شيَّد أحمد بن طولون مسجدًا آخر على جبل يشكر يعرف بمسجد التنور، ويذكر المؤرخون أن مسجد التنور هو موضع تنور فرعون، كان يوقد له عليه، فإذا رأوا النار علموا بركوبه فاتخذوا له ما يريد، وكذلك إذا ركب من عين شمس، ويقال: إن تنور فرعون لم يزل في هذا الموضع بحاله إلى أن خرج إليه قائد من قواد أحمد بن طولون فهدمه وحفر تحته، ويبدو أنه كان يظن أنَّ هناك مالاً مدفونًا تحته ولكنه لم يجد شيئًا. وقد بنى أحمد بن طولون لهذا الجامع مئذنة، كانت تستعمل فيها النيران ليلاً لهداية الناس.

٦- الزراعة:

بذل أحمد بن طولون قصارى جهده لتشجيع الزراعة وزيادة الإنتاج الزراعي، فأصلح التُّرَع والقنوات التي تروي الحقول، وحفر الجديد منها، وأصلح السدود المحطمة، وحمى الفلاحين من ظلم جُباة الضرائب وتعسفهم؛ مما أدَّى إلى ازدياد مساحات الأرض المزروعة من جهة، ووصول أسعار الحبوب إلى أدنى مستوى.

٧- الصناعة:

ازدهرت الصناعة في عهد أحمد بن طولون، ويأتي على رأس الصناعات التي اشتهرت بها مصر آنذاك صناعة النسيج، من ذلك صناعة الكتان التي اكتسبت أسواقًا جديدة، وكانت تُصنع أنواع مختلفة من الكتان في مصر السفلى في مدن تِنِّيس ودِمياط ودَبِيق وشَطَا ودَمِيرة وغيرها، وفي مصر العليا في مدن الفيوم والبهنسا وإخميم. واشتُهِرَت مصر أيضًا بصناعة المنسوجات الصوفية، إضافة إلى المنسوجات المطرزة بالذهب والموشاة التي أنتجتها مدينة الإسكندرية عُرفت بجودتها العالية.

٨- إصلاح مقياس الروضة:

قام أحمد بن طولون بإصلاح مقياس النيل بالروضة الذي أقامه والي مصر أسامة بن زيد التنوخي سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م لقياس ارتفاع منسوب مياه النيل، ثم جُدِّد هذا المقياس على أيام الخليفة المأمون العباسي سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م، ثم أُعِيد إنشاؤه زمن الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م إلى أن قام أحمد بن طولون بإصلاحه، وما زال هذا المقياس موجودًا إلى اليوم في جزيرة الروضة.

٩- حصن الروضة: شيد أحمد بن طولون حصنًا منيعًا بجزيرة الروضة ليكون معقلاً له، لا سيَّما أن العداء بينه وبين الموفق -أخي الخليفة المعتمد- كان على أشُدِّه، وتكررت محاولات الموفق لإبعاد ابن طولون من مصر[٢٤].

وفاة أحمد بن طولون.. والثناء عليه

بعد عقد صلح بين ابن طولون والموفَّق، وحلول الصلح بينهما، زحف ابن طولون ليقمع الفتنة التي شبَّت في طرسوس، فلما وصل إلى هناك، وكان الوقت شتاءً والثلج كثيرًا، لم يعُقْهُ ذلك عن نصب المجانيق على سور طرسوس لإخماد الثورة، لكنه مرض ولم يستطع الاستمرار في الحصار؛ فأسرع بالعودة إلى مصر، حيث لقي ربه في ١٠ من ذي القعدة ٢٧٠هـ/ ١٠ من مايو ٨٨٣م. وقد أثنى عليه ابن الأثير قائلاً : "وكان عاقلاً حازمًا، كثير المعروف والصدقة، متدينًا، يحب العلماء وأهل الدين، وعمل كثيرًا من أعمال البر ومصالح المسلمين"

خمارويه بن أحمد بن طولون

وُلِدَ خمارويه بن أحمد بن طولون عام مائتين وخمسين هجرية، وتولَّى جيوش مصر وهو دون العشرين من عمره، وقد كان لديه كثير من الأعوان، فأولى اهتمامًا بالجيش لمواجهة ما ينتظره من تحديات، وعُنِيَ عناية خاصة بفرقة "المختارة" التي كانت تُشَكِّل جنده وحرسه الخاص، كما اهتم بمظهر الجنود وزيِّهم؛ ولذلك لقِّب بأبي الجيوش،بعد وفاة أحمد بن طولون، خَلَفه ابنه خمارويه، وكان ابن طولون قد أوصى له بالإمارة وبايعه الجند عقب وفاة أبيه في ذي الحجة ٢٧٠هـ.

علاقة خمارويه بالدولة العباسية

عندما تُوُفِّي أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م قام الموفَّق بالإغارة على الشام للقضاء على الدولة الطولونية، لاعتقاده أن خمارويه لم يكن رجل حربٍ لميله إلى حياة السلم والرخاء، فاستولى الموفق على الشام حتى الحدود المصرية، لكن خمارويه أفشل خطته وردَّه على أعقابه، واستعاد سيطرة الطولونيين على البلاد الشامية حتى الموصل والجزيرة الفراتية، وانتزع من الخلافة العباسية اعترافًا له بحكم مصر -هو وأولاده- لمدة ثلاثين سنة عند عقد معاهدة صلح سنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م بينه وبين الخليفة العباسي المعتمد ووليِّ عهده الموفَّق، على أن يكفَّ خمارويه عن لعن الموفق على منابر مصر والشام، والدعاء له مع الخليفة المعتمد على الله العباسي.

الجيش في عهد خمارويه: كوَّن خمارويه فرقة من أولاد الحوف -أي الذين كانوا يسكنون إقليم الحوف، وكانوا يشتغلون بقطع الطرق وإلحاق الأذى بالناس، ويتميزون بضخامة الأجسام والشجاعة والبأس، فرأى خمارويه أن يستفيد من شجاعتهم وقوتهم البدنية، فأدخلهم في خدمته، وسمَّاهم (المختارة)، وكانوا يلبسون الأقبية من الحرير والديباج، ويتقلدون السيوف المحلاة، وتسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة.

أدَّى ضعف الدولة الطولونية إلى رغبة الخلافة العباسية في إعادة مصر إلى نفوذها المطلق، فأرسل الخليفة المكتفي قائدَه محمد بن سليمان الكاتب للقضاء على الطولونيين، فنزل بحمص وبعث بأسطول إلى سواحل مصر، وفي (تِنِّيس) التقى الأسطولان العباسي والمصري، فحَلَّت الهزيمة بأسطول مصر، ووقعت تِنِّيس ودمياط في يد

محمد بن سليمان، وفرَّ هارون إلى العبَّاسة -بمحافظة الشرقية- حيث قتله عمَّاه: شيبان وعدي ابنا أحمد بن طولون في صفر سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م، فلم يرضَ قوادُ الجند عن عملهما. ولما عُيِّن شيبان على ولاية مصر رفضوا الموافقة على تعيُّنه، وكاتبوا محمد بن سليمان، فنزل الفسطاط، وألقى النار في مدينة القطائع عاصمة الطولونيين. وهكذا قُضِي على الدولة الطولونية، وخربت القطائع، ولم يبقَ منها غير المسجد الجامع شاهدًا على عظمة الدولة الطولونية.

المراجع:

١-فاروق عمر فوزي، طبيعة الدعوة العباسية.

٢-عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الاول.

٣-رشيد الجميلي، تاريخ الدويلات الاسلامية في العصر العباسي في المشرق والمغرب .

٤-طارق فتحي سلطان، التاريخ الاسلامي في العصر العباسي.

٥-طقوش ، محمد سهيل ، تاريخ الدعوة العباسية.

٦-العبادي، احمد مختار، تاريخ الدولة العباسية.